٨ عبد الله بن عمرو بن العاص سبق أباه إلى الإسلام

من النماذج العظيمة فى تاريخ الإسلام.. تلك التى أفرزها هذا الدين الحنيف فى فترة وجيزة، هذا الصحابى الجليل الذى اصطبغت أفعاله وأعماله بمبادئ الإسلام وقيمه، حيث تجده قائم الليل، صائم النهار.. لايعرف لسانه مايؤذى به أحداً، ولا ينطق إلا بذكر الله.. تالياً قرآنه، ومسبحاً بحمده، مستغفراً لذنبه، تراه وقد تذوق حلاوة الإيمان، فلم يعد الليل والنهار يكفيان لتعبده، هذه العبادة التى كان يحرص عليها بشكل غير مألوف مما جعل النبى ﷺ ـ الذى جاء يدعو الناس إلى عبادة الله ـ يضطر للتدخل فى عبادة هذا الصحابى الجليل، حيث رأى فيها تشدداً وتزيُّداً لم يحث عليهما الإسلام، حتى قالوا عنه: إنه كان من التوابين العابدين الأوابين..

ذلك هو عبد الله بن عمرو بن العاص.. ومنذ أن سبق أباه عَمْرَو بن العاص إلى الإسلام، ووضع يمينه فى يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقلبه مضاء بنور الله، ونور طاعته.. وظل متمسكاً بإيمانه حتى لفظَ أنفاسه الأخيرة.

وبقدر ما كان أبوه عمرو بن العاص مشهوراً بالذكاء والدهاء وسعة الحيلة بقدر ماكان عبد الله مشهوراً بين الصحابة رضوان الله عليهم بالعبادة والزهد وصدق الإيمان، وكأنه خُلقَ كى يكون قديساً عابداً، لايشغله عن الذى خُلقَ له وهُدِىَ إليه شىءٌ فى الدنيا، ولا يُنسيه ما اقتنع به وآمَنَ أىُّ شاغل من شواغلَ الحياة.

كان يعكف على القرآن.. فكان كلما نزلت منه آية حفظها واستوعبها وتدبرها، حتى إذا تَمَّ واكتمل القرآن فى قلبه لم يكن لجميعه حافظاً فحسب، أو ينطبع على ذاكرته كتابا يردد آياته.. بل كان يحفظه ليكون بعد ذلك عبداً صالحاً، يحل ما

أحل الله، ويحرمً ماحرم، ويستجيب له فى كل ما يدعو إليه.. يحفظ القرآن لينير قلبه، وتهدأ نفسه، وكأنه يردد قوله تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1].

أيامه كلها تتلخص فى أنه من الفجر إلى الفجر فى عبادة موصولة. صيام وصلاة، وتلاوة للقرآن، حتى استدعاه النبى ﷺ وقال له: «ألمْ أُخْبَرْ أنكَ تصومُ النهار لا تفطر، وتصلى الليل لا تنام.. فحسبُك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام..»

قال عبد الله: «إنى أطيق أكثر من ذلك ياسول الله».

قال النبى ﷺ: «فحسبُك أن تصوم فى كل جمعة يومين».

قال عبد الله: «فإنى أطيق أكثر من ذلك يارسول الله».

قال النبى ﷺ: «فهل لك إذن فى خير الصيام.. صيام داود، كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً..». وقد قصد الرسول ﷺ من ذلك أن يخفف عن هذا الصحابى المؤمن ويُيسر له أمر دينه، وخير الأمور الاعتدال.

وعاد النبى ﷺ يسأل عبد الله بن عمرو بن العاص بعد إقباله على العبادة إقبالاً شديداً مِمَّا يُشكل خطراً حقيقياً على حياته، الأمر الذى كان يشغل بال أبيه عمرو ابن العاص فيشكوه إلى النبى ﷺ، فقال له النبى: «علمتُ أنكَ تجمع القرآن ليلة، وإنى أخشى أن يطول بكَ العُمر وأن لا تقدر على قراءته.. اقرأه فى كل شهر مرة.. اقرأه فى عشرة أيام مرة، اقرأه كل ثلاث..».. ثم قال له النبى ﷺ: «إنى أصوم وأفطر، وأصلى وأنام، وأتزوج النساء.. فمن رغب عن سُنتى فليس منى»، مؤكداً معنى اليُسْر فى العبادات.

فى هذه المرة التى أمر النبى ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص بالقصد فى العبادة، محدداً له مواقيتها.. فى حضور أبيه عمرو بن العاص أخذ النبى يَدَ عبد الله ووضعها فى يد عمرو بن العاص وقال: «افعل ما أمرتُك به وأَطِعْ أباكَ» قالها

(١) سورة الرعد ـ من الآية ٢٨.

النبى ﷺ متأكداً أن عبد الله بما أوتى من إيمان سوف يطيع والده مادام ما يؤمر به ليس معصية للخالق.

هذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص حيث تضع الحرب مع المشركين أوزارها، أما إذا خرج جيش الإسلام إلى جهادٍ يلاقى فيه المشركين الذين يشنون عليه الحرب والعداوة كما يقول المفكر الإسلامى خالد محمد خالد: «وجدناه فى مقدمة الصفوف.. يتمنى الشهادة بروح محبٍّ وإلحاح عاشق».

مقاتلا صنديداً لايشق له غبار، حيث تنقلب السماحة إلى شراسة من أجل الحق.

وقد اشترك في معظم غزوات النبى ﷺ مع المشركين بقلب مؤمن مفعم بالإيمان.. ولم يكن فى واحدة منها متردداً أو هياباً.. ولكن ما أكثر تردده وما أكثر خشيته يوم أن دعاه أبوه عمرو بن العاص للاشتراك فى موقعة «صفين» حيث اختار عمرو بن العاص عدم الوقوف إلى جانب الإمام على بن أبى طالب، رضى الله عنه وناقشه فى ذلك الأمر طويلا، إذ كيف يشهر المسلم السلاح فى وجه أخيه المسلم.. ولما يَئِسَ أبوه من رفضه وتردده ذَكَّرَهُ بنصيحة رسول الله ﷺ قائلا: «ألم يقل لك الرسول أطِعْ أباك؟!».

وهنا صدع عبد الله لأمر أبيه، وتوجه إلى المعركة، ولكنه لم يشهر سلاحاً، وهو أمر يؤكده أغلب المؤرخين والرواة، مُعَلّلاً ذلك بأنه أطاع أباه فى التوجه، ولم يشارك فى الحرب.

ويذكر المفكر الإسلامى الكبير خالد محمد خالد أن المؤرخين اختلفوا فيما إذا كان عبد الله بن عمرو بن العاص قد اشترك فى هذه المعركة أم لا، لأن القتال لم يلبث إلا قليلا حتى وقعتْ واقعةٌ جعلت عبد الله يتحول ليكون ضد الحرب وضد معاوية بن أبى سفيان، وذلك أن عمارَ بن ياسر الذى كان يقاتل مع الإمام علىٍّ رضى الله عنه، وكان موضع إجلال مطلق من أصحاب الرسول ﷺ. فقد تنبأ فى يوم بعيد بمصرعه وقتله بأيدى فئة باغية، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص أحد الذين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ.

هذا الصحابى الجليل ـ عمار بن ياسر ـ قُتِلَ فى هذه المعركة، وسَرَى النبأ كالريح، وانتفض عبد الله بن عمرو منزعجاً غاضباً قائلا: أو قد قُتِلَ عمار..؟! وأنتم قاتلوه..؟! إذن فأنتم الفئة الباغية التى تنبأ بها رسول الله فى حديثه...

ولم يكتف بذلك، وإنما أعلن هذا أمام جيش معاوية هاتفاً فيهم بأنهم بُغَاة ـ بنص حديث رسول الله ـ لأنهم قتلوا عماراً. وقد صدقت نبوءة رسول الله ﷺ قائلا: «وها أنتم ـ أى أفراد جيش معاوية ـ الفئة الباغية».

وعلم معاوية بن أبى سفيان بما يقول عبد الله بن عمرو بن العاص، فدعا معاويه عَمْراً ومعه ابنه عبد الله، وقال لعمرو: « ألا تَكُفَّ عنا مجنونك هذا؟»

فقال عبد الله: «ما أنا بمجنون، ولكنى سمعتُ رسول الله يقول لِعَمَّار: تقتلك الفئة الباغية».

قال له معاوية: «فَلِمَ خَرَجْتَ معنا؟».

قال عبد الله: «لأن رسول الله أمَرَنى أن أُطيع أبى، وقد أطعتُه فى الخروج، ولكنى لا أُقاتل معكم».

وقصة أخرى يذكرها الأستاذ خالد محمد خالد تشير إلى إيمان عبد الله بن عمرو، الذى كان يختلف ولاشك عن أبيه عمرو بن العاص حيث قال لمن يجلس معه فى مسجد الرسول أثناء مرور الإمام الحسين رضى الله عنه: أتحبون أن أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟ إنه هذا الذى مرَّ بنا.. الحسين بن على.. إنه ما كلمنى منذ «صِفَين، ولأن يرضى عنى أحبُّ إلىَّ من حُمر النّعَم.»

واتفق مع أبى سعيد الخدرىِّ على زيارة الإمام الحسين، وحينما التقى الاثنان سأله الإمام الحسين: «ما الذى حَمَلكَ على الخروج مع معاوية» فأجاب عبد الله بأن ذلك كان تنفيذاً لتعاليم الرسول ﷺالذى نصحه بأن يطيع أباه فيما يطلب، وقد طلب منه الاشتراك فى الحرب فأطاع.

وهكذا ظل عبد الله بن عمرو بن العاص عابداً قانتاً حتى وفاته بمصر، ودَفْنه فى مكان داره بجوار مسجد أبيه عمرو بن العاص بمصر القديمة، كما يذكر على مبارك فى خططه التوفيقية، وابن قتيبة فى معارفه، وما تؤكده الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها مساجد مصر.

* * *